من ثنايا التاريخ

الغـــازى

للاستاذ السمرنجاوى

المدرس بمعهد التربية

وفد المبعوثون من بلاد فارس يريدون المثول بين يدى الملك فيليب ، والملك غائب عن قصره فى مقدونيا ، وولى عهده ناضج العقل جيد الرأى نافذ البصيرة ملتهب الحماسة ، والمبعوثون فى حضرته مبهوتون معجبون : تأخذهم رهبة التلميذ فى حضرة المعلم ساعة الامتحان ، وتتنزعهم لهجة القائد على رأس جيشه فى أشد أوقات المحنة ؛ ويغلبهم على أمرهم منطق الحكيم المتجر الذى يحل كل كلمة محلها ، ويستولى على مشاعرهم أدب وظرف وكرم وخلال طيبة لم يعهدوا مثلها . والعجيب أن يترك الأمير فى نفوسهم كل ذلك الأثر وهو لم يجاوز الرابعة عشرة ؛ فقد كانوا يتوقعون منه أن يسألهم عن موضوعات تافهة من النوع الذى يملأ رؤوس الشباب ، كانوا ينتظرون أن يسألهم عن الحدائق المعلقة وعن أبهة البلاط الفارسى وفخامة القصور الملكية التى أثارت إعجاب العالم ودهشته وعن الشجرة الذهبية العجيبة التى يقال أن ملك الفرس كان يجلس تحتها فى استقبال السفراء والعظماء فتظلهم غصونها البراقة وثمارها المصوغة من اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر ؛ ولكن الأمير لم يتناول فى كلامه شيئاً من هذا ، بل كان يعمد إلى أسئلة ذات طبيعة أخرى ؛ فهو يسألهم عن أسهل طريق إلى آسيا الصغرى وعن المسافات بين البلدان والأماكن المختلفة وعن قوة ملك الفرس ومصدرها وعن موقفه فى كثير من المواقع وعن معاملته لأعدائه وسلوكه فى رعاية رعيته ، والمبعوثون يخرجون من حضرة الأمير يفكرون فى البون الشاسع بينه وبين مليكهم ؛ وأخيراً يكون بينهم هذا الحوار :

— ما أعظم هذا الأمير يا رفاقى !!

— هو عظيم بحق ياصاحبي ، ولكن لا تنس أن ملكنا ترى .

— وماذا يغنى عنه ذلك الثراء إذا لم يكن مزوداً فى شخصه بعناصر العظمة ؟ ؟

ذلك الأمير هو الأسكندر الأكبر ، الذى بدت قوة شخصيته فى سن المراهقة فى مواقف كثيرة نسوق منها ما كان من أمره مرة فى حضرة والده وكبار قواد جيشه ورجال دولته ، هذه هى قصة الجواد الذى أرسل إلى فيليب من تساليا وابتاعه بمبلغ كبير من المال ، وفيليب يرغب فى امتحان الجواد فيخرج فى جمع من قواده ووجوه دولته إلى سهل قريب ، والقواد يجيئون فرادى يذل الواحد منهم بعد الآخر ما فى طوقه من حيلة واقتدار فى سبيل تذليل ذلك الجواد الجبار ، وهذه الجهود كلها تضيع ولا يستطيع واحد منهم أن يعتلى صهوته أو يقترب منه ، وفيليب لا يلبث أن يأمر باعادة الجواد إلى تساليا ، وهنا تقوم قيامة الأسكندر ويتعلق بوالده راجياً الاحتفاظ به مظهراً لأبيه استعداده لقيادته ، وفيليب يحسب أن الأسكندر مستشرف للهلاك فلا يقيم وزناً لهذا الرجاء ، ولكن الأسكندر يلح فى رجائه ، ويسمح له أبوه فى تردد وحيرة ، الأسكندر يقترب من الجواد ويمسك بعنانه فيلويه فى ثبات وجرأة موجهاً الجواد وجهة الشمس ، وهو بهذا يعفيه من رؤية خياله على الأرض ، فيهدأ الجواد ويطمئن بذلك ، والأسكندر يمسح بيده رقبة الجواد ويحتسها فى لين ورفق ، ثم لا يلبث أن يقفز إلى ظهره ويجرى به أشواطاً بعيدة على مشهد من الملك وبطانته : والأسكندر فى كل هذا يستفزه بصوته القوى فيلهب من حماسته ، والملك وحاشيته فزعون من هول ما يشهدون ، والأمير الصغير ينتهى من هذه التجربة فيترجل عن جواده ، والملك يحبس دموع الفرح فلا يجد الى ذلك سبيلا ، ثم هو يضم الأسكندر إلى صدره ويقبل رأسه قائلا له :

« أى بنى ، إن مقدونيا تضيق بمواهبك ، فابحث لنفسك عن مملكة تتسع لذلك العزم وتتفرج لهذا الجبروت !!! »

والأسكندر يستمع لنصح أبيه ويعاقده أن ينتصح به ، فيكون بهذا فاتح العالم القديم

***

وزار الأسكندر بعد وفاة أبيه فيليب مدينة كورنث كى يحضر مؤتمر القواد للتشاور فى شئون الاغريق ، وجاء الناس يشهدون الأسكندر والكل معجب بشهامته مفتون بقوته ، ولكن لم يأت الفيلسوف « ديوجنيز » ذلك المعلم الحكيم المتصف بالزهد والوقار ، فسأل الأسكندر عن الفيلسوف ورغب فى رؤيته ولم يكن بد من أن يذهب إليه بنفسه ،

والفيلسوف قاعد فى متاع الدنيا يعيش فى صندوق من الخشب ليلقى على الناس درساً فى الخشونة، وحين وصل الاسكندر إليه كان قد خرج من صندوقه واستلقى على الأرض يتقلب ظهراً لبطن فى أعطاف الشمس الحنون ، والاسكندر يقف اليه فيحجب عنه أشعة الشمس ، ثم لا يلبث أن يخاطبه بقوله :

« لقد سمعت ياسيدى عن حكمتك ، وفكرت كثيراً فى أن أراك ، وإنى أشكر الظروف التى أتاحت لى الوقوف إلى معلم فاضل يهدى الناس بحكمته إلى سواء السبيل ، أطلب منى ياسيدى ما تشاء فإن ما تطلب موفر عليك

— انى أطلب منك شيئاً واحداً هو أن تتنحى حتى أستمتع بحرارة الشمس التى حجبتها عنى ! ! ! »

هنا تثور ثائرة الحاشية ويبالغون فى تعنيف الفيلسوف ويهمون بضربه عنقه ، ولكن الاسكندر يقف دون ذلك ويرى غير رأيهم ويقدر شجاعة الرجل الذى لا يطأطىء الرأس للملوك ويقول فى إعجاب كلمته العظيمة:

« لو أننى لم أكن الاسكندر لوددت أن أكون ديوجنيز ! ! ! »

* * *

وقبل أن يخرج الاسكندر لغزو فارس أعطى الناس كل مايملك من متاع ، فقال له أحد أصحابه إنك جواد فى عطائك ! ولكن ماذا تركت لنفسك ؟ فكان جواب الاسكندر :

« الأمل هو كل ما أحرص عليه »

وخرج مزوداً بالأمل يقاتل دولة الفرس العظيمة ، فالتقى مع دارا الثالث فى وقائع كثيرة عند غرانيق وإسوس ، وظل يزحف حتى استولى على فينقيا وسوريا ومصر ، وخرج من مصر يريد قلب الامبراطورية الفارسية فانتصر أرابيلا نصراً عزيزاً على الفرس ، وهنا أقف عليك موقفاً يشهد على رجولته ، ذلك أنه غنم فى هذه المعركة غنائم عظيمة ، منها صندوق عجيب من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة ، وفى داخله آنية من المرمر فيها الطيب الذى كان يتعطر به دارا ، والاسكندر بعد القتال متعب يملوه غبار الواقعة ، والجند يقدمون له ذلك الصندوق علّه يصيب منه مايزيد نشاطه ، والاسكندر يمسك بالصندوق ويتأمله طويلا ثم يلقى على الأرض ما فيه من آنية العطر ، ثم يتناول الياذة هوميروس فيملأ بها الصندوق وهو يقول فى غبطة وارتياح : « خير لنا أن نفرغ فى هذا الصندوق الجميل أطيب ما انتجته عقول البشر من أن نحشوه بما تخرج الأرض من الطيب والعطر ، فنتاج العقول خالد على العالمين ، وذلك العطر لايذر الهواء من نفحاته قليلا ولا كثيراً »

هذه رجولة الاسكندر وهذا حزمه وعزمه ، فهل كثير على مثله أن يكون فاتح العالم القديم ؟؟

هذه الحكاية شاهدة على رجولة الاسكندر ، وهي فوق هذا تشهد على مقدار ماينعطف الملك الشاب نحو الأدب ، فهو يحب أشعار هوميروس لا كما يحبها الغزاة والملوك والعظماء ، يحب منها تلك الصور الرائعة التي تمثل القوة والشجاعة والمضاء والحزم والسياسة في الحرب والسلام ، وتروعه من تلك الأشعار هذه المواقف الخالدة التي يتمثل فيها أجا ممنون ملكا عظيما وجنديا باسلا ، والاسكندر لا يقرأ ذلك الشعر ليلهو به ويتفكه ، ولكن ليرسم لنفسه من بين أسطاره أمثلة عليا للأقدام والنجاح ، فلا عجب أن يقدس الاسكندر هوميروس وشعر هوميروس

وبعد هذه المعركة تقدم الاسكندر ينتزع من الفرس بلادهم ويوقع الهزيمة في صفوفهم في وقائع كثيرة حتى دخل عاصمتهم أسيس واستولى على كنوزها ثم تقدم في زحفه حتى وصل بلاد الهند فقاتل ملكها بوراس قتالا عنيفا انتصر فيه المقدونيون وأسروا ملك الهند وعددا عظيما من جيشه وحين مثل (بوراس) الهندي بين يدي الاسكندر قال الأخير مخاطبه

— كيف تريد أن أعاملك ؟؟

— كما تعامل ملكا عظيما ! !

— ولكن ألا تطلب مني شيئا آخر ؟؟

— ان كل ما أطلب هو أن تعاملني كملك عظيم ! ! والاسكندر يحب الشجاعة ويعجب بالجرأة واليقين القوي ، فهو يملك مع بوراس ملوك النيل والمروءة فيرد إليه بلاده ويجلسه على عرشه في ظلال الاشراف المقدوني .

والاسكندر بعد هذا يعود أدراجه فيصل إلى بلاد فارس ويزور قبر ملكها العظيم « كورش » مؤسس الامبراطورية الفارسية وهناك يقرأ كتابة خالدة كان كورش قد أوصى بأن تنقش على قبره :

« لا تحسدوني بهذه الحفرة الصغيرة التي تضم عظامي »

والاسكندر يقف جامدا مبهوتا بعد أن يقرأها ، لأنه يرى مصير ملك قاهر عزيز جبار ويسير الاسكندر الى بابل ، وهناك تصيبه الحمى فلا يعبأ بها ، ثم هو يفرغ في جوفه من آن لآخر أكواب النبيذ فينتشي ويقوى على الجلوس ، ثم هو يأمر رجال البحر أن يطوفوا حول شواطىء بلاد العرب تمهيدا لغزوها ، والاسكندر يلبث حمة وعشرين يوما لا يبرح داره في بابل ، والجنود في قلق دائم وحزن شامل ، وأخيرا يجتمعون بالباب يريدون النظر إلى وجه الاسكندر ، والملك يأمر أن يدخلوا غرفته صفا صفا ، وهم يمرون من أمامه يستعبرون إشفاقا وحذرا عليه ، والاسكندر تعروه من جديد حمة الوطء التي تعهدوها إلى جانب فراشه ، فيقول وهو يتأوه تأوه الأسيف « مابال جندي يخفقون الوطء وكانوا من قبل يخرقون الأرض قوة واقتدارا » ثم يلبث أن تحضره الوفاة وبهذا تفيض أعظم روح عرفها التاريخ القديم ؟

ع . السرنجاوي